الباب الرابع

اتجاهات إسلامية

اتجاهات قاصرة

اتجاهات أصيلة

اتجاهات إسلامية

نحن نتحدث عن العالم المعاصر . . .

ومن ثم فإننا نتحدث عن القرن العشرين . . .

ولئن كنا أوغلنا قرنا أو بعض قرن حين تحدثنا عن الاتجاهات الدخيلة : غربية وشرقية؛ فذلك لنبين جذورها، وليعلم قومنا أن ما هم فيه ليس قصدا إلى تمدينهم ولا إلى رقيهم، إنما هو عروة من عرى حرب ضروس شنها أعداؤهم عليهم . فلما لم تفلح حرب السلاح ، لجؤوا إلى حرب الفكر والعقيدة .

وكانوا فى الثانية : **أخبث ، وأنجح** .

بيد أنهم ـ وإن نجحوا ـ فإن نجاحهم محدود . . .

محدود كماً : فلا تزال القاعدة العريضة من المسلمين بعيدة عن تأثيرهم، لا تزال الفطرة فى البادية وفى الريف هى الغالبة، برغم كل ما بذله الغرب والشرق من فساد وإفساد . . .

وهو كذلك محدود كيفاً:

فإن ما غيروه قليل إلى جوار ما بقى ، حتى فى نفوس أتباعهم .

ولا يزال الإسلام فى كل يوم يضم إلى صفوفه كثيرين ممن كانوا عندهم روادا . . .

وهذا محمد حسين هيكل يعلن عودته لحظيرة الإسلام.

وهذا طه حسين، يتجه فى أخريات حياته إلى الإسلام، وإن بقى فكره مشوبا بكثير من المؤثرات الأولى .

وهذا جلال كشك ، ومصطفى محمود .

وغيرهم كثير . . .

يفتح الإسلام ذراعيه فرحا بهم، أشد فرحا من فرحة الأم بعودة وحيدها الغائب، أو أشد فرحا من ظاعن بالصحراء وجد بعد لأى بعيره الشارد . وهذا النجاح لا يأمن بعد ذلك رد الفعل . . .

إن لم ينتهوا، ويتركوا أرض الإسلام ، وأبناء الاسلام . وبعض الذى سنقدم ـ إن لم يكن أكثره ـ كان رد الفعل .

وقد بدأ أو بدا أثره قاصرا .

لكنه يوشك ـ بإذن الله ـ أن يعرف طريقه، وأن يبلغ غايته، ليتم الله نوره ولو كره المشركون.

ونحن نكتفى فى الحديث عن الاتجاهات الإسلامية بما كان منها فى هذا القرن الرابع عشر الهجرى، لأن هذا هو معنى المعاصرة الذى نقصد إليه، ولن نشغل أنفسنا ولا نشغل الناس بالحركات التى لبست ثياب الإسلام وهى تضمر له الشر ، وتحمل له الحقد، فإن صبغها بصبغة الإسلام خطأ كبير [1] .

لكنا قد نشغل أنفسنا ونشغل الناس بالحركات والاتجاهات القاصرة ؛ لأنها وإن كانت لا تمثل الإسلام الصحيح، فإنها خطوات إليه، حسب أصحابها منها حسن النية، وحسبهم اجتهادهم وإن أخطؤوا فلهم الأجر ـ إن شاء الله، ثم لابد من دراستها لنتبين ما فيها من خير فنستثمره، وما فيها من سوء فنرفضه، ثم لندعو أصحابها أن هلموا إلى الإسلام الصحيح . . ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ

(١) مثل القاديانية . . التى قامت فى الهند عميلة للاستعمار البريطانى . . . محاولة تحريف العقيدة الإسلامية . . . وهى وغيرها من الحركات المشبوهة موضع دراسة مادة الأديان والفرق .

وُجُوهٌ﴾ [آل عمران : ١٠٥، ١٠٦] .

ونبدأ ـ بإذن الله ـ بهذه الاتجاهات .

ثم نثنى ـ بإذن الله ـ بالاتجاه الصحيح .

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الفصل الأول

اتجاهات قاصرة

مقدمة :

وفى حديثنا عن الاتجاهات القاصرة فقد نغفل تسمية أصحابها، ليس خوفا منها، ولا ملقا لغيرها . .

فيعلم الله، أنَّ خوفنا منه، ورجاءنا إليه .

ـ ولكنه أدب، علمنا إياه الرسول ﷺ، حين كان يصعد المنبر فيقول : «**ما بال أقوام فعلوا كذا وكذا**».

ـ ثم هو بعد ذلك دعوة، لأولئك الذين أحبوا الإسلام، وإن لم يفهموه الفهم الصحيح أو المتكامل، دعوة إليهم من غير جرح لمشاعرهم.

فهم أقرب إلينا من الذين شردوا، وهم أعز علينا منهم، بل قد يكونون أعز علينا من أنفسنا.

وأول هذه الاتجاهات القاصرة : ما اقتصر على العقيدة، وغالى فيها . .

وثانى هذه الاتجاهات القاصرة : ما اقتصر على النسك ، وغالى فيها . .

وثالثها : ما اقتصر على محاولة إصلاح بعض المؤسسات ولم يستطع، حتى أن يغالى فيه. ونكتفى بهذه الاتجاهات لنجمع تحتها كثيرا من الحركات التى ظهرت فى هذا القرن، ولنجمع تحتها كذلك كثيرا من الجمعيات التى حملت اسم الإسلام ، أو جزءاً من اسمه . .

وكل ذلك بغير تسمية كما أشرنا . .

المبحث الأول

اتجاهات نحو العقيدة

لا شك أنها نقطة بداية صحيحة :

أن نبدأ من العقيدة . .

فإنها الأساس . .

لكن، الخطأ والخطر . .

أن نقف عندها . .

أو أن نتغالى فيها . .

وقبل أن نبين الخطأ والخطر فيها ، نبين الصواب فيها ، مشيرين إلى ظروف نشأتها، فهذان بحثان ـ بإذن الله .

أولا : صواب البدء بالعقيدة

البدء بالعقيدة عين الصواب .

لأن الإسلام يقيم بناء له أساس . .

وأساسه العقيدة . .

وبناء الإسلام ليس من حجارة ولا من صخور ، وإن كان بعد قيامه أثبت من الرواسى وأصلب من الصخور . .

إنه بناء معنوى . .

بناء قيم ومثل . .

بناء شريعة . .

أساسها عقيدة . .

وهذا البناء لا يقام فى فراغ .

ولا يقام كذلك على جماد .

لكنه يقام على أكرم ما خلق الله ، على الإنسان .

ثم هو يقام فى أعز مكان فى الإنسان وأغلى قطعة فيه . .

إنه يقام فى قلبه . .

«التقوى ها هنا ـ وأشار النبى ﷺ إلى قلبه» [1] .

«ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب» [2].

والذين أقاموا الحضارات غير الإسلامية . . .

أخطؤوا نقطة البدء، بل أخطؤوا مكان البناء نفسه .

فأقاموا بناء الحضارة خارج الإنسان، من الآلة، والمصنع، وناطحات السحاب.

وهم حتى حين نظروا إلى الإنسان، نظروا إلى أحط شىء فيه؛ غرائزه . .

فكانت حضارتهم إشباعا لهذه الغرائز، وإثارة لها، حتى شقى الإنسان بحضارتهم أيما شقاء .

وأهملوا فى الإنسان أعز شيء فيه، وأغلى قطعة منه . . أهملوا قلبه . .

وهذا هو الفارق بين حضارتهم وحضارة الإسلام . .

والظروف التى دعت للنداء بالعقيدة :

قريبة من الظروف التى دعت الإسلام للنداء بها أول مرة .

---

(١) من حديث طويل رواه الشيخان .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الإيمان ٢٩ ، ومسلم، وابن ماجه .

فكثير من المجتمعات الإسلامية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، وبعضها لا يزال حتى القرن الرابع عشر الحالى ـ يتنازعها تقاليد وأفكار، إن لم تكن هى الشرك فهى قريبة منه، بل إن بعض هذه المجتمعات أوشك يوما أن يعبد شجرة، أو مكانا حاطه البعض بشيء من التقديس .

ولا يزال كثير مما يحدث اليوم ـ فيما يسمى بالموالد ـ له شكل الشرك، ولا ينقصه إلا النية ـ والله أعلم بالنوايا . .

وبرغم أن أصحاب هذه « الموالد » برءاء مما أحدث الناس ، بل إن بعضهم لو كان على الحياة لحرق كثيرا من أولئك الضالين ، كما فعل على بن أبى طالب ﷺ بمن ألهوه من دون الله ـ سبحانه وتعالى . .

وبرغم ما يقال من أن إحياء هذه «الموالد» إحياء لمبادئ وقيم أصحابها وتذكير بها . .

فإن ما غلب عليها من «بدع» وما يرتكب فيها أو باسمها من «آثام» كفيل بالانتهاء عنها .

فإن أسباب تحريم الخمر والميسر قول الله : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩] .

فضلا عن أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

وسد الذرائع كفيل بترك ما لا بأس به خشية أن يكون به بأس . .

طواغيت:

والطواغيت التى أمرنا الله أن نكفر بها ليصح إيماننا . .

ليست ـ ولم تكن ـ الأوثان والأصنام فحسب . .

إن تلك الأوثان والأصنام بجرد صورة واحدة، أو مثل واحد .

لكن صور الطواغيت كثيرة :

معتقدات . .

مبادئ . .

أفكار .

أشخاص . .

عواطف ومشاعر . .

سلوك . .

صور للتنسك . .

وجماع هذه جميعا : أن تعطيها أو تعطى شيئا منها بعض صفات الله أو بعض أفعاله التى اختص بها وحده ـ سبحانه . .

ولا يهم أن تفردها بهذا العطاء . .

أو أن تشركها مع الله فيه . .

فمن أعطى شخصا، أو هيئة، أو مبدأ، صفة «الحكم» أى وضع القواعد والتشريعات ابتداء، وهذا خالص حق الله سواء فى مجال العقيدة، أو الأخلاق، أو العبادات أو المعاملات : اقتصادية، وسياسية ، واجتماعية . .

فقد اتخذ الشخص أو الهيئة أو المبدأ طاغوتا . .

فإن أفرد بهذه الصفة، فقد اتخذه طاغوتا من دون الله .

وإن أشركه مع الله فى هذه الصفة ، فقد اتخذه طاغوتا مع الله .

وفى الحالين إن توافرت له الإرادة فقد انتفى عنه الإيمان . .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

إلى قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

فلينظر الذين يقولون :

«أنا مسلم العقيدة ماركسى المذهب»

فإن العقيدة لا تصح حتى يسقط كل طاغوت يعطيه الإنسان بعض حق الله .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ولذا كان النفى فى شهادة التوحيد سابقا على الإثبات . .

لا إله إلا الله . .

العقيدة الصحيحة :

والعقيدة الصحيحة .

ليست مقصورة على نطق اللسان : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

إنها قبل ذلك علم القلب وعمله . .

وهى ليست مقصورة بعد ذلك على عمل الجوارح .

إنها إن اقتصرت على الأولى : شهادة اللسان ، وانتفت الثانية : كانت نفاقا . .

وإن اقتصرت على الثانية دون الأولى ، كانت كفرا . .

وإن اقتصرت على الأولى والثانية دون الثالثة ، كانت فسقا . .

ثم :

إنها ليست مقصورة على جانب من صفات الله دون الجانب الآخر .

إنها كما تشمل الاعتقاد بأن الله خالق . .

تشمل كذلك الاعتقاد بأنه رازق . .

تشمل كذلك الاعتقاد بأنه : حكم أو حاكم . . والإخلال فى جانب من هذه الجوانب كالإخلال بالجانب الآخر، سواء بسواء [1] .

ثانيا : خطأ وخطر

الذين نادوا بالعقيدة على ذلك النحو .

أصابوا كل إصابة . .

لكنهم أخطؤوا من جانبين :

أنهم وقفوا عندها . .

أو أنهم غالوا فيها، أو فعلوا الخطأين معا . .

أما خطؤهم فى الوقوف عندها :

فإن العقيدة أساس . .

لا يقوم بناء بغيره ، وهذه أهميتها . .

لكن . . .

أيصح لعاقل أن يقيم الأساس، ويكتفى ؟

فلا يقيم بعده البناء ؟

وما يجديه الأساس، إن أصابته حرارة الصيف أو مسه برد الشتاء ؟

وأما خطأ المغالاة فيها :

فقد جاء من اعتبارهم الائتمار بالأمر والانتهاء على النهى جزءاً من العقيدة،

---

(١) تفصيلا لذلك : بحثا مفصلا (الإيمان الحق : شهادة وعقيدة وعبادة) للدكتور على جريشة ـ دار الشروق؛ الطبعة الأولى، سبتمبر سنة ١٩٧٥م ـ والمراجع المشار إليها فى هذا البحث .

وترتيبهم نفس النتيجة التى تترتب على تخلف الأجزاء الأخرى ـ كشهادة اللسان أو اعتقاد القلب. واعتبار «العمل» بتفصيله السابق جزءا من الإيمان صحيح .

لكن ترتيب نفس النتيجة عليه غير صحيح .

ذلك أن للإيمان درجات، كما أن فى الجنة درجات .

وللكفر دركات، كما أن فى جهنم دركات !

أو هو كالكائن الحى، لا يستوى فصل رأسه مع فصل رجله أو يده . ومن ثم فلا يستوى فى شرع الله تارك الشهادة : لا إله إلا الله مع تارك إطعام المسكين . .

ولا يستوى من داس مصحفا، أو أنكر شيئا ما فيه.

مع من اغتاب، أو سعى بالنميمة، أو حتى قتل !

والقرآن سمى تارك « الهجرة » مؤمنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وسمى من قاتل أخاه «مؤمنا» : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩] .وتداعى الناس وتتابعهم فى المعاصى، لا يدفعنا إلى خطأ آخر، هو تكفيرهم . .

إنما ينبغى على المسلم أن يمسك فى أحلك الظروف بالميزان الدقيق . يزن به الأفعال والأشخاص ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧] .

المبحث الثاني

الاقتصار على النسك

لا شك في فضل شعائر الله .

ولا شك أنها عمد هذا الدين، لا يقوم بغيرها . .

ولا شك أن تعظيمها وتوقيرها من تعظيم الله وتوقيره، ومن تقوى القلوب: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج] .

لكن هل نستطيع أن نقتصر عليها ـ فقط ـ ونقول هي الدين ؟

الرسول يرفض محاولة الاقتصار أو محاولة التغالى :

بعض الذين يقتصرون اليوم على الشعائر يقولون : إنهم يتشبهون بالصحابة ، وأصحاب رسول الله ﷺ براء مما يقولون . .

فمنهجهم هو منهج الرسول عليه الصلاة والسلام، الذى شجب مثل هذه المحاولات ليوضح سنته، حين قال أصحاب النبى ﷺ : أين نحن من النبى ﷺ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلى الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا..

فجاء رسول الله ﷺ فقال : «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟**

أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . .

ولكنى أصوم وأفطر . .

وأصلى وأرقد . .

وأتزوج النساء ..

فمن رغب عن سنتى فليس منى» [1] .

وهذا حنظلة الكاتب التميمى ، يقول : كنا عند رسول الله ﷺ، فذكرنا الجنةوالنار حتى كأنها رأى العين، فقمت إلى أهلى وولدى فضحكت ولعبت . قال: فذكرت الذى كنا فيه، فخرجت فلقيت أبا بكر ﷺ فقلت : نافقت، نافقت . فقال أبو بكر : إنا لنفعله، فذهب حنظلة فذكره للنبى ﷺ، فرد عليه رسول الله ﷺ،رد المعلم الرؤوف الرحيم : «**يا حنظلة لو كنتم كما تكونون» عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم، (أو على طرقكم) يا حنظلة، ساعة وساعة»** [2] .

وحين علم رسول الله ﷺ أن رجلا قد انقطع للعبادة .

قال : «**ومن يطعمه ويسقيه**» ؟

قالوا : أخوه .

قال : «**أخوه أعبد منه**» .

ثم أعطى معنى العبادة حقها :

حين جعل الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله [3] .

وحين قال : «**إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج، ويكفرها الهَمُّ فى طلب المعيشة !**» وفى لفظ: «**عرق الجبين**» [4] .

الاستعمار يشجع فرق المتنطعين :

وحين جاء الاستعمار الأوربى إلى أرض الإسلام، حارب الدين وكل ما هو

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد واللفظ للبخارى .
(٢) رواه ابن ماجه .
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى .
(٤) رواه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية .

دينى، إلا فرق المتنطعين رافعى الرايات، وضاربى الدفوف، والهائمين على وجوههم، زاعمين أنهم من أهل الله يتكففون الناس.

وكان من بين ما شجعه المستشرقون التصوف [1].

التصوف بهذا المعنى القاصر.

لأننا لا نود أن نظلم المتصوفة كلها.

وإن كنا نود لهم ما ارتضاه رسول الله ﷺ:

«أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له.

ولكنى أصوم وأفطر.

وأصلى وأرقد.

وأتزوج النساء.

فمن رغب عن سنتى فليس منى»!

هل صحيح بعد ذلك الاقتصار على النسك؟

أظنه ليس بحاجة إلى جواب.

إلا أن تقول بصلاحية أعمدة تقوم، لأن تؤوى أسرة فتقيها حر الصيف وبرد الشتاء.

وإلا أن تقول بغير ما قال محمد عليه الصلاة والسلام.

أما المغالاة:

فلئن كان الاقتصار خاطئا.

فالمغالاة أشد خطأ، حتى ولو كانت بقصد كريم شريف، فلابد مع القصد من الاتباع؛ لأن الإفراط فى شىء تماما كالتفريط فيه، كلاهما طرفا نقيض مذموم من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

(١) راجع ما سبق عند الكلام عن الاستشراق.

قَوَامًا ﴿٦٧﴾ [الفرقان] .

وفى موضوعنا نصوص كثيرة : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات :٧].

«عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا » [١] .

«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» [٢] .

«إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه» [٣] .

وبعد ذلك . .

فإن الإغراق فى جانب وإعنات النفس فيه، يؤدى - بغير شك - إلى الملل والسأم، مما يفضى بعد ذلك إلى الانقطاع ! أو يرتد بالنفس إلى النقيض الآخر . .

أو يؤدى إلى خلل فى الجسم أو العقل أو المال .

---

(١) الموافقات ج١، ص٣٤٣ .
(٢) رواه أحمد والبيهقى .
(٣) رواه البخارى والترمذى .

المبحث الثالث

مدارس العقل والعقلاء

مدارس العقل والعقلاء نشأ أكثرها فى فترة الاحتلال الأجنبى، وفى أوج قوته ..

لها فلسفتها :

إننا لسنا بقادرين على مجابهة قوة الاستعمار العسكرية، ومن ثم فلنؤجل الجهاد، ولنعمل العقل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أو باستعارة التعبير : (ما لا يدرك كله لا يترك جله).

اتهام ننفيه :

ونحن - على عكس كثير غيرنا - نحسن الظن بأصحاب هذه المدارس، ولا نقبل أن نسميهم (عملاء) [1].

وإن بدا منهم لون من الاتصال أو التعاون مع العدو المستعمر ..

ذلك أن هؤلاء القوم - كما نقول - صدروا فى فلسفتهم المحركة لهم عن ضعف استشعروه ، فالاستعمار قهرهم ، وقهر من كان أشد منهم قوة وأعز نفرا !

فكيف بهم أن يقفوا فى وجهه .. ؟

سذاجة :

لكننا وإن نفينا عنهم (العمالة) فلا نستطيع أن ننفى عنهم (السذاجة)، إنهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يضحكوا على الاستعمار ويمكروا به فإذا به أشد مكرا .

---

(١) شن الدكتور محمد محمد حسين حملة شديدة على الشيخ محمد عبده وشيخه الأفغانى فى كتبه : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، الحضارة الغربية ... إلخ، وسار على نفس المنهج الأستاذ غازى التوبة فى بحثه القيم «الفكر الإسلامى المعاصر» وفعل غيره كذلك .

ظنوا أنهم يستطيعون أن يمتطوه ليسخروه لصالح الإسلام وامتطاهم الاستعمار ليسخرهم لصالح التغريب، والتغيير الاجتماعى !

فبعضهم ظن أنه يستطيع أن يقنع الإنجليز بإصلاح التعليم الدينى : (إن أعظم فاعل فى نفوس المصريين أن يقال لهم : إن صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم وإنكم مأمورون ببعضه) ، ثم يقول : (الدين الإسلامى الحقيقى (!) ليس عدو الألفة ، ولا حرباً على المحبة ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم فى المصلحة، وإن اختلف عنهم فى الدين، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا فى رأس أو آلة لعامل) [1] .

وبهذه النية التى نحسن الظن بها، ألف صاحب مدرسة العقل جمعية التقريب بين الأديان .

فيها المسلمون .

والنصارى .

واليهود .

ولعلَّه لم يكن قد اطلع على توصيات المبشرين والمستشرقين فى التقريب بين الأديان، ولعله كذلك لم يدرك أن التقارب بين الإسلام والمسيحية واليهودية لا يمكن أن يكون إلا على حساب الإسلام؛ لأنه الوحيد الدين الصحيح وغيره محرف ولابد فى التقريب من التنازل وتنازل المحرف لا يضره ! . أما تنازل الصحيح فإنه يضيره ويضره كل الضرر ! !

ولعله لم يدرك أن المشركين حاولوا مع رسول الله ﷺ ذلك التقارب حين قالوا له: نعبد إلهك يوما ، وتعبد آلهتنا يوما .

فأنزلها رب السماء والأرض قاطعة حاسمة .

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : محمد محمد حسين.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون] .

ولا أدرى هل قرأ (سيد العقلاء) ما كتبه أحد أعضاء جمعيته تحت عنوان (الإسلام والمدارس المحمدية) التى جاء فيها : (وإحسان المسلمين لمواليهم ، وإشفاقهم على البهائم التى ترجع ـ أيضا ـ إلى الرب، وإنفاقهم فى سبيل الخير ، والسذاجة التى هى من خصال المؤمنين الصادقين أحرى بأن تميلنا إليهم ، من أن نصيح :(النبى الكاذب) .

وما أحسن عمل مبشرينا (!!) لو جاهدوا فى التوفيق بين الإسلام والمسيحية توفيق أختين من أم واحدة) [1] ، وهكذا أعطى الإمام من (السذاجة) ما يرغب فيه المبشرون !!

وقفة :

ولسنا نحاسب (الإمام) بعدذ لك على انضمامه للمحفل الماسونى الفرنسى ، فنحسب أنه فى ذلك التاريخ لم يكن من الناس كثير يدرك حقيقة الماسونية ، وحقيقة الدور الذى تلعبه ، ولم يكن (نيلوس) قد نشر (بروتوكولات حكماء صهيون) التى صرحت باستخدام الماسونية لتحقيق أهداف اليهود ، وإن أدرك نشرها فى روسيا فربما لم يدرك نشرها فى إنجلترا ، ولم تكن بالقطع قد ترجمت إلى اللغة العربية ؛ لأن هذه الترجمة لم تتم إلا بعد ذلك بكثير ..

لا نحاسب الرجل على هذه النقطة، خاصة وأن الماسونية لا تكشف عن حقيقتها لأعضائها إلا فى درجة سحيقة من درجاتها الثلاث والثلاثين .

---

(١) للمفتش الإنجليزى جى ديلو إيتر ـ بجريدة الديلى تلغراف اللندنية فى ٢ شباط ١٨٨٨ . وراجع تعليقا على ذلك للأستاذ غازى التوبة ـ الفكر الإسلامى المعاصر ـ دراسة وتقويم .

ولا نحسب الرجل أشد حذرا من رئيس عربى ، ظل ينتسب لمحفل ماسونى حتى بعد أن صار (زعيم ثورة) و(رئيس دولة)، فلما فاحت أمر بحل كل المحافل الماسونية فى بلده!

وأما الذى نأخذه على الرجل العالم :

أولا : اقتصاره من الإسلام على الإصلاح عن طريق التعليم، فالإسلام - كما سنشير - ليس مجرد ثقافة - فقط - لكنه منهاج تربية ، ومنهاج حياة ، وليته فى هذا الجانب استطاع أن يصلح !!

ثانيا : إن الرجل وهو فى موضع القدوة للمسلمين مالأ (الكافرين) الذين غصبوا الديار وما بعد الديار !

وإنكار القلب وإن كنا نكتفى به من الشيخ الإمام، يفرض مع الإنكار (الاعتزال) وإلا فقد السلامة من الإثم والبراءة من الذنب، فليس وراء ذلك النوع من الإنكار حبة خردل من الإيمان .

ولا ندرى ، هل كان الإمام يحفظ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ ﴾ [الممتحنة] .

وهل قرأ غيرها من الآيات فى نفس المعنى أم أن له فيه تأويلا كتأويله فى الملائكة أو فى سجودهم، أو فى معصية آدم، أو فى خلق عيسى عليه السلام ، أو فى الجن ، أو فى السحر ، أو غير ذلك مما أعمل فيه عقله (الكبير) ليقول (بالرأى فى كتاب الله ؟ !)

لقد مضى الرجل إلى ربه فنترك له حساب سره وعلانيته لكننا إزاء الظاهر .

وعمره الذى أفنى فى محاولة إصلاح التعليم، بلوغا إلى مقاومة الاستعمار أو إلى النهوض بالإسلام، لا نملك إلا أن نتلو قول الله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ ﴿١٠٣﴾ أَعْمَالًا ﴿١٠٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف] .

ونترك - من قبل ذلك ومن بعد ذلك - حسابه على الله، لكننا نسوق ما نسوق ليعتبر أولو الأبصار، ويتذكر أولو الألباب فلا تتكرر الصورة مرة أخرى .. !

الفصل الثانى

محاولة لخط إسلامى أصيل

المبحث الأول

ضـــلال وقصـور

أولا : ضلال الاتجاهات الدخيلة :

لقد نقل (البعض) عن الغرب - علمانية - فى التعليم والإعلام وفى القانون ..

ونقلوا منه (تحرير المرأة) من بيتها ومن زيها ..

ونقلوا عنه إضعاف دور الدين وإضعاف رجاله ..

وظنوا ذلك طريق المدنية والتحضر والنهضة .

فهل تحقق لهم ذلك .. ؟

إن المنطق أولا يرفض ذلك النقل (الآلى) .

إن شخصين قد يمرضان بمرض واحد، ومع ذلك يعرضان على طبيب واحد، فيقضى لكل مريض منهم بدواء مختلف عن الآخر .

وإن نباتا واحدا قد يزرع فى أرضين كلاهما خصبة، فتنبت الواحدة وترفض الأخرى، وإن شخصين فى سن واحدة ودرجة ثقافة واحدة، قد يلقنان علما أو عقيدة، فيورث أحدهما جهلا والآخر علما، ويورث أحدهما إيمانا والآخر كفرا !!

إن الشعوب تماما كالأشخاص؛ لأنها مجموعة أشخاص..

ما يطب شعبا، قد يمرض شعبا آخر .

وما يعلم شعبا، قد يورث الآخر جهلاً .

وما يدفع شعبا إلى الإيمان، قد يدفع الآخر إلى الكفر والفسوق والعصيان !

بل إن النبات ليأخذ بالاختيار فيتخير من عناصر التربة ما يصلح له .

فما يختاره النخيل قد لا يختاره شجر البرتقال، وهكذا ..

فهل يؤتى النبات (فطرة) الاختيار، ويفقد الإنسان الذى أوتى الإرادة قدرة الاختيار؟

ثم إن (الأصالة) ترفض ذلك النقل .

فالشعوب الأصيلة تستمسك بما لديها من (تراث)، باعتباره أحد عناصر استقلالها ..

بل أهم عناصره، وهى - حتى تحت الهزيمة - قد تستمسك به ..

ولدينا مثل من الأمة الإسلامية الأولى .

حين غلبت على أمرها أمام زحف التتار، رفضت أن تأخذ بالياسق الذى وضعه الغالبون جزءاً من شريعة جنكيزخان، وأجزاء من شريعة الإسلام وأجزاء من شرائع أخرى ..

ومثل من الأمة الألمانية ، والأمة اليابانية ، لم يفقدوا - برغم الهزيمة المرة - العناصر المميزة لشعوبهما، ولم يذهبا إلى نقل كل وارد من غير تمحيص، وها هى الأمتان تعودان أقوى مما كانتا، تعودان لتقرضا أغنى دول العالم، ولتنشرا على مستوى العالم كله منتجاتهما!!

والإسلام بعد ذلك يرفض ذلك النقل الأعمى .

لأنه هو الأعلى، والأعلى لا يمد اليد لما هو أدنى.

لأنه الطيب، والطيب لا يستبدل به الخبيث.

لأن عنده ما ينفع الناس، ولا يستبدل بما ينفع الناس الزبد أو الغثاء.

ولا يتسع المجال لندلل من النقل والعقل :

أن الإسلام هو الأعلى .

وهو الطيب .

وأن عنده ما ينفع الناس .

فنحسب أنه لا ينكر على الإسلام ذلك إلا معاند، أو جاهل، وفى الإعراض عن كليهما خير، أى خير ..

والماركسية فى منهجها الأخير تحاول أن تقيم صلحا بينها وبين الإسلام .

والكفر والإيمان لا يصطلحان .

والشر والخير لا يتقاربان، ولا يجتمعان..

ومن ثم كانت دعوة مرفوضة، غير مشكورة ..

ولتبحث لها عن دين آخر ..

يقبل الصلح أو التقارب أو الاجتماع .

فلقد شب أبناء الإسلام عن طوقهم ، ولم يعودوا يقبلون ذلك (التغفيل) أو (التضليل) . والماركسية بتراجعاتها الكثيرة فى مجال النظرية :

فى التفسير المادى للتاريخ .

وفى مفهوم المادة ذاته .

وتراجعاتها الأكثر فى مجال التطبيق العملى :

بعد عدولها الجزئى عن إلغاء الملكية .

وبعد عدولها المرحلى عن إلغاء الأسرة .

وبعدول بعض أجزائها الأوربية عن مبدأ دكتاتورية البروليتاريا .

وبعدولها المرحلى (التكتيكى) عن الهجوم على الدين .

وبأخذها عن (الرأسمالية) نظرة الحوافز .

وبمهادنتها للنظم الرجعية، بل إعلانها الوفاق مع بعضها ..

كل ذلك ..

لم يعد معه من المقبول - علما ومنطقا - أن نقول بوجود (النظرية الماركسية) .

وأخيراً..

فماذا فعلت الماركسية، حين أعطيت لها (القيادة) فى بعض البلاد الإسلامية؟، هل حققت تقدما اقتصاديا؟

الواقع الأليم يحكم على الاشتراكية والاشتراكيين بالخراب - كل الخراب - هل حققت تقدما سياسياً .

فى ظل توجيهاتها العليا كانت أكبر محنة للشعب المسلم فى المنطقة، حين استذلته واستعمرت أرضه، أذل أمة فى الوجود ..

هل حققت تقدما اجتماعيا ..

ليس سوى التمزق بين أبناء البلد الواحد، بل بين أبناء الأسرة الواحدة، من اتهامات باليمينية ، والإمبريالية .

وغيرها من الألفاظ والمصطلحات الرنانة ..

ثانيا : قصور بعض الاتجاهات الإسلامية :

ماذا فعلت بنا الاتجاهات الإسلامية التى عرضنا لها : من اقتصار على العقيدة إلى اقتصار على النسك ، إلى اقتصار على محاولة إصلاح التعليم ؟

كلها ـ باقتصارها على جانب واحد ـ أشبه بجيش جرار، معه سلاحه وذخيرته، لكنه يقف مكانه يحرك رجليه ..

وليس له ثمة تقدم يذكر .

إنه يسير مكانه ، والعالم كله يسير إلى الأمام .

أو هى من ناحية أخرى :

تقيم جزءاً من البناء، وتهمل الباقى .

فمما يتكون البناء المتكامل الذى يشد بعضه بعضا .

وما يكون نصيب الجزء الذى بنى إلا أن تعشش فيه الغربان ، وتأوى إليه الحشرات..

فلا يلبث أن يبدو بعد حين كريها لكل ناظر ..

والإسلام أعز من ذلك وأكرم ..

إذن فأين الطريق ؟

المبحث الثانى

أين الطـــريق ؟

من ابتغى نباتا طيبا ، فلابد له من أمرين رئيسيين :

تربة طيبة ، وبذرة طيبة . والباقى عوامل مساعدة .

والتربة الطيبة - فى رأينا - هى شريعة الله كلها ..

فإذا أحسن زرع البذرة الطيبة فى الأرض الطيبة ، كان نباتاً طيباً ..

كانت حضارة ونهضة تسعدان الإنسان وتسعدان العالم كله .

ونتحدث عن كل عنصر بما يسمح به المقام .

أولا : الإنسان كله

أشرنا من قبل إلى أنه إذا كانت حضارات القرن العشرين ـ أو بالأصح جاهلياته، قد لجأت إلى الآلة وإلى المصنع ، وجعلت الإنسان فى الدرجة الثانية، فإن حضارة الإسلام تجعل الإنسان ـ فى الدرجة الأولى - صانعا لها ، ثم هدفاً لها ..

والإنسان ـ بلا شك ـ هو أكرم المخلوقات فى هذا الوجود .

ومن ثم كانت حضارة الإسلام ـ باعتبار الإنسان صانعا لها ثم هدفا لها ـ أكرم حضارة فى الوجود . وقضية تكريم الانسان وتفضيله على غيره من المخلوقات قد تبدو قضية بديهية ، بالنسبة لعصرنا ، لكنه قد أتى حين من الدهر لم يكن فيه الإنسان شيئا مذكورا ..

حتى لقد استعبد هذه الفترة ، وخضع للبيع والشراء فى سوق النخاسة .

واستعبدت المرأة فى فترة ، وكان ينظر إليها على أنها متاع كسائر متاع فى البيت ، وكانت تورث من بين ما يورث من الأشياء .

ولا تزال المرأة فى حضارات كثيرة مستعبدة وإن علقوا على رأسها لافتة الحرية، لاتزال تباع وتشترى فى سوق الرقيق الأبيض، ولا تزال تعرض سلعة رخيصة فى كثير من الأماكن تبيع النظرة وتبيع البسمة، وتبيع ما وراء ذلك بالدرهم والدولار!!

وفى زمن نظر الناس إلى الملائكة على أنهم الجنس الأكرم .

ونظر آخرون إلى الجن .

وجاءت كلمة الإسلام قاطعة : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وقصة سجود الملائكة لآدم التى حكاها القرآن ، ليست للتسلى ولا للتلهى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:١١١] .

لكن البعض قال فيها بغير علم، وتأول صريح ألفاظها ودلالاتها، بما يخرجها عن معناها وهدفها ..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة :٣٤] .

وتكررت فى أماكن أخرى بألفاظ أخرى ، لكنها كلها من الوضوح بما لا يصرفها عن معناها الظاهر إلى معنى خفى أو ملتوٍ . الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، والملائكة كلهم سجدوا إلا إبليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين .

وسجود الملائكة على هذا النحو - فعل حدث وتم، وهو يعنى التكريم الذى أشارت إليه آيات أخرى ، بل هو أبلغ درجات التكريم ..

وتكريم الإسلام لآدم وبنيه، ينصرف بلا شك إلى الجنسين؛ الذكر والأنثى . وهذا التكريم اقتضى صيانة (الإنسان)؛ ولذا كانت صيانة (دمه) و(عرضه) و(ماله)، بل يبلغ التكريم والصون غايته ومنتهاه حين يقول رسول الله ﷺ - ناظرا لبيت الله المحرم الذى زاده الله تشريفا وتكريما : «ما **أعظمك، وأعظم** حرمتك . لحرمة **المؤمن أعظم عند الله من** حرمة **بيته** المحرم» . حضارة القرن العشرين شهدت على أيدى بعض أدعيائها ممن جعلوا حرمة المؤمن دون حرمة الكلاب ، فأهدروا جسده ، ودمه ، وعرضه ، وحرموه من أدنى الحقوق بل أدنى الضرورات ، حرموه أن يقضى حاجته ، وحرموه أن يسد رمقه !! قد يقال : وكل حضارات الدينا لم تقم ولا يمكن أن تقوم بغير الإنسان .

ونقول : ولكنها لا تجعله من الدرجة الأولى .

ولا تنظر إليه نظرة الإسلام، كلا لا يتجزأ، أشرف ما فيه قلبه ..

الإنسان كله :

فى هذا تفترق حضارة الإسلام عن سائر الحضارات، إنها لا تنظر للإنسان كجسد وحسب، كما تفعل الحضارة المادية شرقية وغربية، نزوعا إلى ذلك المستوى الهابط الذى صور به «فرويد» الإنسان مجموعة غرائز تتحرك، أو نزوعا إلى ذلك الأصل الهابط الذى تدرج به «دارون» إلى أن يجعل أصل الإنسان قردا أو ما وراء ذلك ..

حضارة الإسلام لا تغفل واقع الإنسان أنه جسد ..

لكنها لا تغفل الجانب الآخر - من الواقع - أن له روحا ..

أن له عقلا، وقلبا ..

وهى تبدأ مع الإنسان، وفى هذا تفترق عن سائر الحضارات من أعز مكان فيه وأشرفه، من قلبه ، فتودع فيه العقيدة والإيمان ..

وبهذا تكون نقطة التحول للإنسان .

بهذا يبدأ الإنسان معراجه إلى حضارة المثل والقيم والأخلاق .

ولا تغفل بعد ذلك بقية القوى فيه ..

إن لربك عليك حقاً .

وإن لبدنك عليك حقاً .

وإن لزوجك عليك حقاً .

فأعط كل ذى حق حقه .

ويتحقق فى الإنسان (المسلم) التوازن المفقود عند غيره ..

فلا الجسد ولا حاجاته يطغى ، فينقلب الإنسان إلى حيوان تسيره غرائزه ..

ولا العقل ومنطلقاته يطغى، فينقلب الإنسان إلى خيال بعيد عن الواقع والحياة .

ولا القلب وأشواقه يطغى، فينقلب الإنسان إلى راهب ينقطع عن الدنيا وما فيها..

وإنما كلُ، يسير بقدر ، كما أن كلا خلق بقدر .

كل يسير فى فلكه المرسوم ، كما تسير الكواكب فى فلكها المرسوم .

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس] .

أما القدر الذى يسيِّر قوى الإنسان .

وأما الفلك المرسوم الذى يسير فيه .

فهو هذه الشريعة التى أنزلها الله له .

وفيها هذا النظام الرائع المحبوك، الذى لا يقل روعة عن نظام هذا الكون المتناسق الغريب ..

وحين تختل القوى أو تطغى ، ففى توجيهات هذه الشريعة وأوامرها ونواهيها ، ما يرد الأمر إلى توازنه؛ ليعود كلُ، يسير بقدر، وليعود كلُ، إلى فلكه المرسوم بغير طغيان ولا خسران، بغير إفراط أو تفريط .

ثانيا : الشريعة كلها

الإنسان هو التربة الطيبة .

والشريعة هى البذرة الطيبة .

ومنها يكون النبت الطيب بإذن ربه ..

ومنهما تكون حضارة المثل والقيم والأخلاق ..

ومحاولات النهضة الإسلامية السابقة لم تؤت ثمارها المرجوة .

إما لأنها اقتصرت على جانب فى الإنسان تقيمه وتزكيه ، وأهملت بقية الجوانب .

وكما قدمنا، فالإنسان كلُ، لا يتجزأ ، ومخاطبة جانب فيه يخل بالتوازن الذى أودعه الله فى هذا الإنسان، كما أودع التوازن فى الكون كله ..

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝ ﴾ [الرحمن] .

وبالنسبة للشريعة، فالذين اقتصروا على العقيدة - كما قدمنا - اقتصروا على أساس، وتركوا بقية البناء .

والذين اقتصروا على النسك، اقتصروا على أعمدة، وتركوا بقية البناء .

والذين اقتصروا على التعليم، أخذوا جانبا، وتركوا بقية الجوانب وشريعة الله بناء متكامل يشد بعضه بعضا .

أساسه : عقيدة ، وأخلاق .

وعمده : شعائر ، ونسك .

وبقية أركانه وجوانبه : أوامر ونواه وتوجيهات تشمل جميع الحياة .

ونشير فى إيجاز لهذه الجوانب ، ثم نشير على أنها لا تقبل التجزئة ولا التفرقة، ثم نختم بحثنا بتساؤل :

كيف نقيم بناء الشريعة فى النفس وفى الناس ؟

هذا ما نجيب عليه ـ بمشيئة الله ـ فى الفصل الثالث تحت عنوان : جوانب شريعة الله .

الفصل الثالث

جوانب شريعة الله

كان من نتائج إبعاد شريعة الله عن حياة المسلمين، وإبعادهم عنها، أن اختلفت نظرة الكثيرين إليها، حتى المخلصين الراغبين إليها ..

وكان كل من قبس منها قبسا ظن ذلك هو الإسلام، أو ذلك هو الشريعة، فراح يعكف عليه وحده، ويدعو إليه وحده ..

بيد أن شريعة الله كلُ، لا يتجزأ، قد نقبس منها قبسا، لكننا لا نقف عنده، بل نحاول أن نحيط بالنور كله ليكون فيه الخير كله ..

ولسوف نرى فيما بعد - إن شاء الله - أن تجزئة شريعة الله قد تكون فتنة تماما كمنعها كلها، بل ربما أشد ...

من هنا كانت أهمية محاولة الإحاطة بجوانب هذه الشريعة .

وأولى هذه الجوانب وأشرفها هو العقيدة .

وثانيها المكمل لها هو الأخلاق .

ومن هذين يصطبغ المسلم بصبغة الإيمان ...

لكن لابد من صقله وتنمية هذا الإيمان بالشعائر والنسك .

ثم باتباع سائر أوامر الله فى سائر جوانب الحياة .

ونشير لكل جانب بكلمة .

المبحث الأول

العقيدة والأخلاق والشعائر

أولا :جانب العقيدة :

العقيدة أشرف جوانب الشريعة .

ولذا كانت تخاطب أشرف جزء فى الإنسان، تخاطب قلبه .

وبقيامها فى قلوب الناس يقوم أساس هذه الشريعة متينا قويا .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة :١٠٩] .

وقد أشرنا - فى موضوع الحديث عن الاتجاهات القاصرة - إلى أن عقيدة الإسلام متمثلة فى الكلمة الطيبة : لا إله إلا الله .

وهى بهذا - كما أشرنا - تتضمن نفيا ثم إثباتا .

نفيا يقتضى إسقاط كل صفات الألوهية والربوبية عن سوى الله ـ سبحانه وتعالى، من طواغيت، بشرا كانت أو حجرا ...

ولا نحسب الإنسانية - بعد أن شبت عن طفولتها - ترتد مرة أخرى إلى جاهليتها الأولى؛ لتعطى بعض صفات الألوهية أو الربوبية لوثن أو صنم ..

لكنها لا تزال - حتى اليوم - تتردى فى إعطاء بعض هذه الصفات للبشر .

فتعترف لهم بحق وضع (منهاج الحياة) .

كما اعترف الماركسيون بهذا الحق لماركس ومن جاء بعده .

ليفسروا لهم الكون، والتاريخ، والاقتصاد ، ويضعوا لهم منهج السياسة والاجتماع والاقتصاد .

وكما اعترف غيرهم بهذا الحق لبشر مثلهم ، يشرعون لهم (قيمهم) و(مثلهم) ، وقواعد مجتمعاتهم وسائر جوانب حياتهم .

وتردت من ورائهم الأمم الإسلامية، تأخذ عن هؤلاء القيم والمثل والأخلاق والسلوك وسائر مناهج العمل بين الناس، وفى مقدمتها القوانين ...

ونسيت هذه الأمم أنها بهذا تتخذ أربابا من دون الله تعطيها بعض صفات الله وبعض حقوقه . تزعم أنها آمنت بالله وهى تتحاكم إلى هذه الطواغيت : من قيم ومبادئ وقواعد وتشريعات وإيمانها يقتضى أولا إسقاط هذه الطواغيت .

عقيدتها تقتضى أولا إسقاط هذا الحق عن تلك الطواغيت ...

وإثباتا : يقتضى الإقرار بكل صفات الربوبية والألوهية لله وحده .

وبذا تقوم عقيدة الإسلام واضحة قوية فى قلوب المسلمين ...

يقوم الأساس متينا، ليصح من بعده ومن فوقه بقية البناء ...

ثانيا : جانب الأخلاق :

وهذا جانب يغفل عنه الكثير من المصلحين ومن الدعاة ...

مع أنه فى ميزان الإسلام يقف إلى جانب العقيدة ليقيم الأساس .

وكيف لا، والرسول يجعلها غاية لابتعاثه: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [1]

وكيف لا، وقد ظل الرسول ﷺ يربى المسلمين عليها مع العقيدة أكثر من نصف حياته (الرمالية) .

وكيف لا، وبها انتشرت دعوة الإسلام فى أكثر من نصف الأرض التى فتحها الله

---

(١) رواه مالك .

على المسلمين؛ لما رأى الناس من أخلاق تجار المسلمين فى معاملاتهم ..

وكيف لا، وبها يصير المسلمون (مثلا) تتحرك و(قيما) تسعى على الأرض ، ويسعى نورها بين أيديها وبأيمانها ؟

وكيف لا، وقد خلق رسول الله ﷺ، وكان بهذا الخلق أشرف من خلق ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم :٤]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة] .

وأمرنا أن نقتدى بهذا الرسول فى خلقه العظيم :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] .

ولئن اختلفت مذاهب العالم فى الأخلاق، واختلفت فيها اهتماماتهم .

فإن السمة الواضحة فى هذه المذاهب وتلك الاهتمامات، أنهم لا يضعونها فى المنزلة التى يضعها الإسلام أساسا مع العقيدة للبناء كله .

ثم هى عندهم ليست نابعة عن العقيدة ولا متصلة بعبادة .

بينما هى فى الإسلام كذلك .

فأما نبعها من العقيدة ، فهناك أمثلة ، منها :

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» [1] .

(والله لا يؤمن (ثلاثا) قيل : من يا رسول الله ؟ قال : **«من لا يأمن جاره بوائقه»** [2] .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) المصدر السابق .

«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ...» .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد: ٢٢].

وأما اتصالها بالعبادة، فإن إتيانها نفسه والاستمساك بها عبادة .

اسمع ما شئت قول رسول الله ﷺ :«**إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[1].

«**أقربكم منى منازل يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا ...**» .

«**ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن**»[2] ثم إنها بعد ذلك تزكو بالعبادة وتربو .

فالصلاة من بين غاياتها تنمية النظام، والطاعة، والطهر والنظافة والعفة :﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥]، «**لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل منه فى اليوم خمس مرات أيبقى من درنه شيء**».

وأداؤها فى جماعة ينمى روح التعاون والتراحم والود والألفة ، فيتحقق قول الرسول ﷺ: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[3].

والصيام يزكى خلق الصبر ، والاحتمال ، والإحساس بالفقير والعطف عليه .

وينمى فى الوقت نفسه مراقبة الله فى السر كمراقبته فى العلانية .

مما يولد التقوى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه أحمد .
(٣) رواه الإمامان أحمد ومسلم .

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة] .

والزكاة تطهير للنفس من شحها .

وتطهير للمجتمع من الأحقاد .

وتزكية لأخوة الإسلام والمحبة فى الله بين الغنى والفقير .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣].

وهى حق فى مال الغنى ، وليست مجرد إحسان ، ومن ثم ينتقى فيها ما قد يجرح الفقير: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج] .

وفى المال - بعد ذلك - حق سوى الزكاة ..

والحج فيه صبر .

وتطهر من الرفث والفسوق والجدال .

وفيه تنمية لروابط الأخوة بين المسلمين .

وتزكية للوحدة على :

الله الواحد .

والقبلة الواحدة .

والغاية الواحدة .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة] .

وهكذا، وهذه مجرد نماذج .

وأخلاق الإسلام بعد ذلك فيها الثبات .

فهى لا تتغير بتغير الأزمنة .

ولا تتأثر بالظروف ولا المصالح .

وهى ترتفع بالمسلم إلى مستوى من (المثل) لا تدانيه أية قيم أرضية أخرى .

ومن هنا وجب أن يربى عليها المسلمون، كما يربون على تقوى الله سواء بسواء .

ثالثا : جانب الشعائر :

العقيدة والأخلاق أساس .

ويأتى بعد الأساس : العمد .

والشعائر هى العمد .

من هنا، كانت صلتها وثيقة بالعقيدة وبالأخلاق .

فهى كذلك استمداد من العقيدة .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج] .

ثم إن العقيدة تربو بالشعائر وتزكو .

ومن هنا ، كان قول السلف : الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى.

وبينها وبين الأخلاق تأثير متبادل .

فحسن أدائها تزكو به الأخلاق وتربو - على نحو ما أشرنا .

كذلك الأخلاق تؤدى إلى حسن أدائها .

فمن كان ذا وفاء فهو مع الله أوفى .

ومن كان ذا صدق فهو مع الله أصدق .

ومن كان ذا أمانة حفظ أمانة الله أول ما يحفظ .

وهكذا ..

المبحث الثانى

بقية الجوانب

وهى ما تعالج - بعد العقيدة والأخلاق والشعائر - جوانب الحياة توجيها وتشريعا ابتداء من الفرد ثم الأسرة ثم المجتمع ، وفى المجتمع كل نواحيه ـ سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولئن فصل الإسلام فى ثبات ووضوح جوانب العقيدة والأخلاق والشعائر فإنه فى بقية الجوانب فصل ما لا يتغير .

وأجمل ما يتغير .

فمن أمثلة ما لا يتغير : جوهر الانسان ، وما يتصل به من زواج وطلاق وميراث. فقد فصل كل ذلك تفصيلاً وافياً، يعترف فيه بالواقع، ثم يعرج بعد ذلك إلى معراج المثل والقيم التى يحرص عليها ، وما يثيرونه حول هذه القضايا إنما هى شبهات ، يثيرها جهل بالإسلام ، أو حقد عليه ، وليس هنا مكان العرض لها ..

ومن أمثلة ما يتغير : الظروف السياسية والاقتصادية .

ولذا رسم الإسلام فيها الخطوط الرئيسية .

وليس معنى ذلك ـ كما يتفوه البعض ـ أن ليس للإسلام نظام سياسى أو نظام اقتصادى ، فإن الإسلام يرسى المبادئ والإطار العام .

ويضع الخصائص العامة المميزة لهذا النظام الربانى .

ثم يدع لاجتهاد الإنسان تبعا لتغيير الظروف ـ تفصيل بقية الأحكام .

ولنأخذ النظام الاقتصادى والنظام السياسى كمثلين نؤيد بهما قولنا السابق ، ونرد بهما ردا عمليا على أولئك الذين يستوردون لنا النظم السياسية والاقتصادية بمقولة : إن الإسلام لا يتضمنهما .

النظام الاقتصادى الإسلامى

قد يحتاج النظام الاقتصادى الإسلامى إلى حديث طويل ، وقد يحتاج إلى مقارنة مع أنظمة متعددة شرقية وغربية ، ليس من قبيل مقارنة المثيل بالمثيل ، ولكن قريباً من مقارنة الظلام بالنور ، والظل بالحرور ، وبضدها تتميز الأشياء ، لكن حسبنا فى هذا المقام أن نرسم الخطوط العريضة ، ولندع للدراسة الواسعة المتأنية التفصيل بمشيئة الله .

ويكتفى بالحديث عن أمرين :

١ – خصائص النظام الإسلامى الاقتصادى .

٢ – الخطوط الرئيسية للنظام الاقتصادى الإسلامى .

وإن كان الفصل بين الأمرين مجرد فصل نظرى ..

أولا : خصائص النظام الاقتصادى الإسلامى:

١ – نظام ربانى :

بمعنى أن مصدره هو الله ـ سبحانه ـ بما جاء فى كتابه أو فى سنة رسوله .

أو ما أجمع عليه العلماء المسلمون .

أو ما كان سابقة ناجحة فى نظام الحكم الإسلامى ؛ لأنها مستقاة أولا من معين ربانى ، ولأنها ـ ثانيا ـ اجتهاد صحابة أو تابعين لهم بإحسان ، يغنى عنها اجتهادنا لو بلغنا إلى أفضل مما بلغوه !

وربانية النظام تجعل له سحرا آخر .

أولا : أنه يستثير فى النفس وازعا لحفظه وحمايته أقوى من كل وازع .

فلا تحتاج إلى كثير من الأجهزة الثقيلة المعقدة التى أثقلت بها كواهل الشعوب ،

وأثقلت بها ميزانيات الدول ، وثقلت بها صدور الناس !

ومن هنا ندرك الفارق بين حصيلة الزكاة على عهد عمر بن عبد العزيز التى وفت كل المحتاجين من الفقراء والمساكين ، ثم العاملين عليها ، ثم بقية المصارف الأخرى حتى بلغت إلى الغارمين ، فسددت الدولة عن المدينين ديونهم .

ندرك الفارق بين مثل هذه الحصيلة ومجموع حصيلة الضرائب كلها المتعددة ، التى لا تكاد تسد مصرفا واحدا من هذه المصارف !

ثانيا : تجعل احترامه والخضوع له من المحكوم ومن الحاكم على السواء ؛ لأنه من مصدر فوق هذا وذاك أعلى وأسمى .

ثالثا : يتحقق التكامل بين النظام الاقتصادى والنظام الاجتماعى والنظام السياسى لأن الكل من مصدر واحد ، والتجزئة بينها غير جائزة !

٢ – انتفاء الندرة :

مشكلة المشاكل فى النظم الاقتصادية المعاصرة هو ما يتناولونه تحت عنوان الندرة، ويقصدون به قلة الموارد بالنظر إلى تزايد الناس ، أو ما يصطلحون عليه بالانفجار السكانى .

وهذه المشكلة لا وزن لها ، بل لا وجود لها فى النظام الإسلامى .

أولا : لأن هذا النظام تقوم عقيدة أصحابه على : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات]، وعلى أنه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود]، وعلى أن الله قسم الرزق كما قسم الأجل ، وإن الرزق ليطلب المرء كما يطلبه أجله .

ومن ثم فلا يمكن أن يأتى وقت أو يوجد مكان تحقق فيه الندرة ، اللهم إلا أن يكون الأمر عقابا من عند الله :﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف : ١٣٠] .

وكلما أقبلت الأمة على الله، كلما زاد لها فى رزقها :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف :٩٦] .

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ ﴾ [نوح] .

أضف إليها بعد ذلك قول الحكيم الخبير : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم :٣٤] . فنعمة الله ليست نادرة بل هى أعظم من أن تحصى .

ثانيا : من ناحية الواقع :

فإن واقع الأمة الإسلامية يؤكد أمرا مهماً، أنها إن عادت أمة واحدة، وعادت إلى ربها فلا يمكن أن تتحقق فيها ندرة أبدا ..

ـ إن المنطقة الإسلامية أخصب بقاع الأرض زراعيا ..

ـ وأغنى بلاد الأرض بالموارد الأولية ، وفى مقدمتها أنفسها : الذهب واليورانيوم والبترول .

ـ وهى أوسط بلاد العالم موقعا – تجاريا وإستراتيجيا . إذ تشرف على منافذ البحار والمحيطات ، ويمكن لها أن تتحكم فيها ، وهى من ناحية أخرى تقع فى وسط بين قارات العالم، وهى من ناحية ثالثة أكثر البلاد اعتدالا وصلاحية لكل أنواع الإنتاج .

ومن ثم ، فإن صح أن توجد الندرة فى الشرق أو فى الغرب بذنوب أهله وعصيانهم ، وبافتقاد المكان الذى حبا الله به أمة محمد عليه الصلاة والسلام فإنه لا يصح بالنسبة للأمة الإسلامية إذا عادت مرة أخرى أمة الإسلام ؟

٣ ـ ابتغاء الآخرة :

وقد كان يصح أن تكون هذه هى الخصيصة الثانية، لكنا فضلنا أن نشير إلى الربانية ثم إلى الندرة، باعتبار الأولى صبغة مهمة عامة، وباعتبار أهمية الثانية عند أهل العصر ومخالفة الإسلام لها ..

أما ابتغاء الآخرة فهى خصيصة هامة ، وتأخيرها لا يقلل من أهميتها .

وابتغاء الآخرة يخفف كثيرا من غلواء الأنظمة القائمة التى تتعامل ، وكأنه ليس فى الحياة إلا المادة .

وكأن ليس بعد الدنيا آخرة ، يحاسب فيها المرء: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات] .

الدنيا إنما تصير وسيلة لاغاية ، مرتقى وليست منتهى، طريقا إلى هدف وليست هدفا فى ذاتها : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص:].

وهكذا يتضح وضع الاقتصاد .

إن الاهتمام به واجب .

لكنه لا يلهى عن الآخرة .

لأنه نفسه طريق إلى الآخرة .

وإذا ابتغى الإنسان الآخرة فى اقتصاده - فردا كان أو دولة - وسار على الطريق الذى رسمه الإسلام ، فإنه بلا شك يؤدى عبادة من أجلِّ العبادات ؛ لأن العبادة ليست قاصرة على النسك والتعبد ، إنما تشمل كل أنشطة الحياة وكل مجالاتها[1] .

---

(١) راجع الإيمان الحق ـ الدكتور على جريشة .

٤ ـ التوازن :

وهذه الخصائص المتقدمة تفضى إلى ما يسمى بالتوازن الاقتصادى .

وقد كان ذلك يكفى لتقول : إن نظام الإسلام الاقتصادى يقوم على التوازن:

لكن الإسلام أكد هذه الخاصية بأكثر من سبيل :

فجعل التوازن أمرا ملزما للفرد :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وجعلها بعد ذلك صفة للجماعة لازمة :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]. ثم جعلها أخيرا صفة للأمة التى أضفى عليها الخيرية فى مكان آخر :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة :١٤٣] .

وهكذا تكتمل حلقة التوازن أمرا وتوجيهاً، ومن قبل ذلك نتيجة لازمة لخصائص أخرى !

وبهذا ينفرد النظام الاقتصادى عن أنظمة كثيرة، تعانى انعدام التوازن !

٥ـ النظام الاقتصادى الإسلامى يرفض الترف :

قد كان يكفى أن نقول : إنه متوازن .

فهو يعنى أنه يرفض الإسراف ، والترف قمته !

لولا أن الله ينص على الترف .

جعله قرين الفسق ، أو جعل الفسق نتيجته ، وجعل الهلاك والدمار عاقبته :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء] . ومعنى الآية الكريمة : (أمرنا مترفيها) : أن يرجعوا ويلتزموا ، لكنهم أبوا وفسقوا ، فكان الهلاك والدمار .

وفى القراءة الأخرى بتشديد الميم، تعنى معنى آخر : إنه إذا كان الأمر إلى المترفين فسلام على الأمة، إنها لابد هالكة ! لأنه إذا اجتمعت السلطة مع الترف، فإنها لا تنتج غير الفسق ، ولا ينتج الفسق إلا الهلاك والدمار [1] .

ولقد يكون الهلاك فى صورة آية من آيات الله التى أهلك بها أمما من قبل قال فيها: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ ﴾ [الطلاق].

كما قد يكون بتسليط أعداء الله عليها ليذيقوها ألوانا من العذاب، والهوان، والإذلال، أو لتنقلب من الرأسمالية الطاغية التى يتحكم فيها الترف والمترفون إلى النقيض من ذلك إلى جحيم الشيوعية التى يتحكم فيها السفلة والكافرون !

إن الشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده !

الترف يؤدى إلى ضرر اقتصادى مهم . إنه إذا شاع أدى إلى زيادة الاستهلاك على الإنتاج وأدى إلى التضخم، وما يترتب على ذلك من اختلال التوازن الاقتصادى، وحدوث الأزمات الاقتصادية .

وذلك كله فوق الأضرار الاجتماعية الخطيرة التى يؤدى إليها .

فوقه الأضرار السياسية، وفى مقدمتها تمكن الشيوعية الكافرة من بلاد المترفين!

وجماع هذه الأضرار، أو نتيجتها هو ما أكده القرآن : الهلاك والدمار . فليحذر المترفون .

وليحذر الساكتون على المترفين .

إن الهلاك والدمار يقترب منهم .

فوقه هلاك ودمار أشد وأكبر ، إنه الجحيم يوم القيامة !

---

(١) ورد الحديث عن الترف فى آيات أخرى (بأن جعلت المكذبين من المترفين : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ ﴾ [سبأ :٣٤] وبعضها جعل المترفين من أهل النار : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ ﴾ [الواقعة] .

وخيرٌ للمترفين أن يضحوا بشيء قبل أن يحرموا كل شيء .

وخير لهم أن يملؤوا أنصاف بطونهم ، قبل أن تملأها الزقوم وشراب الجحيم : ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان] .

* * *

وحسبنا هذه الخصائص الخمس لننتقل إلى الحديث عن الخطوط العريضة للاقتصاد الإسلامى ، فإنها - إذا أزلنا الحاجز النظرى - كذلك خصائص!

ثانيا : الخطوط الرئيسية للنظام الاقتصادى الإسلامى :

تنبع هذه الخطوط من التوازن الاقتصادى، وصبغ الأنشطة الاقتصادية المختلفة بالصبغة الربانية .

ونكتفى بخطوط ثلاثة رئيسية :

١ - ملكية متوازنة .

٢ - حرية اقتصادية متوازنة .

٣ـ نظام مصرفى متوازن.

ونتناولها ـ بإذن الله ـ على التوالى .

١ – ملكية متوازنة :

تملك الإنسان أمر فطرى ، حتى عدها علماء النفس إحدى غرائزه .

والغريزة فى علم النفس لا تقتل ، ولكن يتسامى بها .

ومن ثم فلا سبيل إلى قتل حب التملك فى النفوس .

والنظام الذى يفعله ذلك يقتل نفسه !

ومن هنا كان الخطأ الرئيسى فى النظام الشيوعى النظرى ، الذى لم يستطع حتى الآن أن يطبق نظريته تطبيقا عمليًا كاملا ، وإن انتحل التعلات والمعاذير !

لكن إطلاق العنان لهذه الغريزة شأن إطلاق العنان لأية غريزة أخرى ، يهلك الإنسان ويحطمه ، كما يهلك النظام كله ويحطمه ، ومن هنا كان خطر الرأسمالية الطاغية التى تطلق العنان للملكية حتى تغدو لونا من الإقطاع ، يسلب الناس ويستعبدهم ويأكل أو يشرب ثمرات جهودهم ، وقطرات جبينهم، بل ويمتد إلى قطرات دمائهم !

ومن ثم كان خطأ الرأسمالية، أو المذهب الفردى .

وبين هذا وذاك كان نظام الإسلام قواما، وكان كذلك قواما .

والأمر أوسع من أن نعرض له فى هذه العجالة .

إن الملكية فى الإسلام معترف بها .

لأن ذلك يؤدى قدرا كبيرا من إنجاح النظام الاقتصادى .

فإن سلب العامل ثمرات جهوده بحرمانه من التملك - يجعله والخامل سواء، ومن ثم يركن النشاط الاقتصادى إلى الركود ، ويضعف الإنتاج ويتهدد البلد البطالة والمجاعة، ومن بعدها الانهيار والهلاك !

وروسيا الاشتراكية مثل قريب ، فإن إنتاج روسيا لم يزد طوال خمسين عاما من الحكم الشيوعى القائم على إضعاف الملكية الفردية والمنادى بإلغائها - لم يزد عما كان عليه فى العهد القيصرى أكثر من ٤٪ فقد كان إنتاجها فى العهد القيصرى ٤٦٪ من الإنتاج الأمريكى، وصار إنتاجها فى العهد الشيوعى وبعد خمسين عاما من حكمه ٥٠٪ من الإنتاج الأمريكى [١] .

فهل تستحق الـ ٤٪ الزيادة كل هذا الفناء والإفناء الذى أحدثه الحكم الشيوعى الغاشم ؟ !

وبلوغ الإنتاج الروسى مثل الإنتاج الأمريكى ، حلم قصرت دون تحقيقه برامجها الاقتصادية المختلفة وخططها الخمسية والعشرية ، رغم الأمانى التى كانت تداعب

(١) مقومات الاقتصاد الإسلامى - للأستاذ: عبد السميع المصرى - مكتبة وهبة - ربيع الآخر ١٣٩٥ - مايو ١٩٧٥ .

ساستها وقادتها ، وكانوا يدغدغون بها عواطف الشعوب اللهثى والجوعى ، التى شقيت بفردوس الشيوعية الكاذب !

لكن هذه الملكية المعترف بها للفرد فى النظام الإسلامى ، ليست طليقة من كل قيد ، بل إن كثيراً من القيود تحوطها مما يحقق انضباطها ، وبها يحقق أداءها لرسالة فى المجتمع يتحقق بها التوازن بين الفردية والجماعية .

ولذا فالملكية تؤدى وظيفتين :

وظيفة فردية، بها تحقق للفرد من إشباع .

ووظيفة اجتماعية، بها تحقق للمجتمع من فائدة .

وأول قيود الملكية - ما أشرنا إليه سلفا - من تحريم الترف .

إن الملكية المترفة مذمومة، وإذا بلغت هذا الحد فإما انتهى صاحبها من نفسه، وإلا كان لولى الأمر أن يقومه والسوابق الإسلامية فى ذلك كثيرة .

ودفع المفسدة فى الإسلام مقدم على جلب المصلحة .

وتلك بعض غايات التشريع الإسلامى الحكيم .

ويلحق بالترف أمور أخرى حرمها الإسلام ؛ كالاحتكار ، والغش ، والتطفيف فى الكيل والميزان .

ويلحق به كذلك الربا ، وهو آفة نفرد لها الحديث عند تناولنا للمصارف ـ بإذن الله، وهذه كلها فيها آثار كثيرة ومشهورة .

وثانى هذه القيود : ما أقامه الإسلام من ألوان الملكية الجماعية .

وهى مرافق كان الإسلام أسبق فى تقدير جعل ملكيتها فى يد الجماعة لا الفرد ؛ لأن خيرها يعم الجميع ، وضرر تركها أو منعها كذلك يعم الجميع ، ومن ثم كانت الجماعة - ممثلة فى أولى الأمر فيها - أقدر على إدارتها لتحقيق غايتها .

والمثل التقليدى فى ذلك قول رسول الله ﷺ: «**الناس شركاء فى ثلاث :الماء**

والكلأ والنار» .

لكن علماء المسلمين قاسوا عليه كل مرفق تظهر حاجة الجماعة إليه وأهمية ملكيتها له .

وثالث هذه القيود : نظام الميراث ، الذى قد يبدو لأول وهلة أنه نظام رأسمالى ، إذ يعتد بالملكية وينقلها إلى ورثة صاحبها ، لكن المتأمل فيه يجده قيدا على الملكية ، إذا يجرى توزيعها وفق نظام دقيق يكفل :

١ـ تفتيت هذه الثروة وانتقالها إلى أيد متعددة بدلا من احتواء يد واحدة لها .

٢ - أنه يجرى توزيعه تبعا للحاجة ، فإذ كانت حاجة الأولاد أشد من حاجة الآباء - باعتبار أولئك مقبلين وهؤلاء مدبرين - كان نصيب الأولاد أكبر ، وإذا كانت حاجة الذكر أشد من حاجة الأنثى إذ يقوم هو على عائلة بينما تكون الأنثى من بين عائلة يقام عليها ، كان لذلك نصيب الذكر أكبر .

٣ - فوق أن النظرة الاقتصادية السليمة : تجعل وضع الملكية فى يد الأبناء وهم أنشط، أولى من وضعها فى يد الآباء ، والأغلب أنهم طاعنون فى السن ، كذلك وضعها فى يد الذكر أجدى للنشاط الاقتصادى من وضعها فى يد الأنثى .

وهكذا يمضى نظام الميراث حكيما ليؤدى وظيفة اقتصادية عظيمة عجز البعض عن إدراكها ، فراح يبدل كلام الله ، وينتهك حدود الله ، ويسوى بين الذكر والأنثى فى الميراث؛ ليحقق بذلك الظلم، وهو يحسب أنه يحقق العدل ، فليس البشر مهما كان بأعدل من الله ، ولا هم أحنى على البشر من رب البشر الحنان المنان ، الرحمن الرحيم ، الكريم الودود .. !

ورابع هذه القيود : ما يجعله من حق فى المال : الزكاة بأنواعها .

ولو أخذت هذه الزكاة ممن تجب عليهم ، ووزعها ولى الأمر على من تجب لهم ، لحققت لونا من العدل الاجتماعى لم يبلغه نظام آخر .

ولحققت كذلك لونا من التقارب والتآخى ، بل ولاقتربت بالنظام من التوازن

الذى يحبه الله فى كل شىء !

وقديما غطت حصيلة الزكاة - مع حياة الضمائر - غطت الفقراء والمساكين والعاملين عليها ، وأعتقت الرقاب ، وغطت كذلك المدينين الغارمين !

وفى المال حق سوى الزكاة .

قد يتمثل فيما يفرضه ولى الأمر المسلم من ضرائب .

وقد يتمثل فيما يراه علاجا للوضع الاقتصادى ، قد يبلغ فى بعض الظروف الاقتصادية الاستثنائية ألا يملك أحد شيئا .. وفى الذين كانوا إذا سافروا أرملوا ، وفى امتداح الرسولﷺ لهم مثل عظيم !

وخامس هذه القيود : منع الضرر .

فملكيتك حق ..

وللآخرين حق ..

وحتى لا يطغى حق على حق ، وجب أن يمتنع المسلم عن الضرر، أو الضرار ، حتى يقف عند حدود حقه ، فلا يعتدى على حق الآخرين .

وبهذا يمتنع تجاوز استعمال الحق .

لكن داخل استعمال الحق نفسه يمتنع لون من الإضرار كذلك ، هو ما اصطلح على تسميته بإساءة استعمال الحق ..

ويوم اكتشفت هذه النظرية فى مطلع القرن العشرين ، التفت العالم كله إلى مكتشفها ، ونسى الناس - فى غيبة الدعوة وغفلة الدعاة - أن الإسلام صاحبها الأول .

فقد نص رسول الإسلام على قاعدة : (لا ضرر ولا ضرار) وهو أساسها القانونى ، وطبق الإسلام صورا عديدة لمنع إساءة استعمال الحق فى مقدمتها : حق الشفعة الذى يؤكد هذا القول تأكيدا عمليًا .

وبهذه القيود، تتحقق للملكية وظيفتها الجماعية إلى جانب وظيفتها الفردية، فكأن الملكية عملة ذات وجهين؛ أحدهما: فردى والثانى جماعى .

وهذا غير ما تتابع [1] فيه بعض الكتاب ـ جريا وراء التعبيرات الحديثة من أن الملكية الفردية فى الإسلام ذات وظيفة اجتماعية . إن لها الوظيفتين الفردية والجماعية ليتحقق بذلك التوازن لهذا اللون من النشاط .

٢ - حرية اقتصادية متوازنة :

تحدث الاقتصاديون عن الحرية الاقتصادية .

فزعم أبناء الغرب أنها تتحقق فى النظام الفردى .

وأن هذا النظام أجدى لتحقيق وفرة الإنتاج وجودته ، وأن القيود التى تفرض على الحرية الاقتصادية لا يجنى أصحابها إلا قلة الإنتاج ورداءته ، وهرب رأس المال وبحثه عن أوطان أخرى غير وطنه ، ومن ثم يتأثر الاقتصاد القومى تأثرا بالغا بالإجراءات التى ترد قيدا على الحرية الاقتصادية .

وزعم أبناء ماركس أن الحرية الاقتصادية فى الغرب أورثت أزمات البطالة ، والدورات الاقتصادية والاحتكار ، وغيرها من المساوئ .

ومن ثم ، فلا سبيل إلا بالقيد الثقيل الذى فرضوه ، وهو أن تكون الحرية للجماعة للفرد ، وللفرد (قدر حاجته ، ومنه قدر قدرته) .

والحق أن الغرب أخطأ إذ أطلق الحرية .

والشرق أخطأ إذ جعل القيد أصلا .

وفى الإسلام تتوازن الحرية الاقتصادية بين الفرد والجماعة ، بما يحول دون طغيان طرف على طرف ، وبما يحقق للنظام الاقتصادى أمثل ما يتمناه ، مع نبذ مساوئ كل طرف غالى فى الحرية، أو غالى فى القيود !

---

(١) أى تساقط .

٣ – نظام مصرفى متوازن :

فى الغرب شاع النظام المصرفى القائم على سعر الفائدة ، وهو تعبير آخر عن الربا، وأدرك الناس متأخرين أن اليهود كانوا وراء هذا النظام ، وأن بيوت المال قد تجمعت مقاليدها فى أيديهم ، لما صارت النقود تلد النقود بغير جهد وبغير عمل !

وأدرك علماء الغرب ما فى الربا من خطر .

وراح البعض يحصى أثر الربا ، وغيره من ألوان الاحتكار على الجريمة فى أمريكا، حتى قالوا : إن أربعة ملايين ونصف مليون جريمة خطيرة تقع كل عام .

- جريمة قتل كل ٢٩ دقيقة .
- جريمة اغتصاب (زنا بالإكراه) كل ١٧ دقيقة .
- جريمة سرقة بإكراه كل دقيقتين .
- جريمة سرقة سيارة كل ٤١ ثانية .
- جريمة سرقة منزل كل ١٧ ثانية .

وهكذا صدق الله سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾[البقرة]

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة] .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾[البقرة].

ومع هذه الصراحة ، راح البعض يتأول قول الله: ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ [آل عمران :١٣٠] بما يخرج عن مراد الآية الكريمة ، ويفرق بين ربا الاستهلاك وربا الإنتاج .

والبعض الآخر راح يحل الربا للدولة ، ويحرمه على الأفراد !! بحجة احتياج الدولة للخروج من أزمتها ..

بينما قادتها يرفلون فى ترف داعر ، ونعيم حرام .

واشترى هذا الفريق من العلماء رضا الناس بغضب الله ، واستحق من وافقوه، أوحرضوه، أو سكتوا عنه حرب الله ورسوله !

وبدلا من أن يأمر بتحريم الحرام من ذلك الترف الداعر ، راح يأمر بتحليل الحرام من الربا ، علاجا لأوضاع أوجدوها هم ولم يوجدها أحد غيرهم !!

ولقد كانت توصيات مجمع البحوث الإسلامية صريحة [1] :

١ ـ الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرم ، لا فرق فى ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكى ولا ما يسمى بالقرض الإنتاجى ؛ لأن نصوص الكتاب والسنة فى مجموعها قاطعة فى تحريم النوعين .

٢ - كثير الربا وقليله محرم لا تبيحه حاجة ولا ضرورة ، والاقتراض بالربا محرم كذلك ، ولا يرتفع إثمه إلا إذا دعت إليه الضرورة ، وكل امرئ متروك لدينه فى تقدير ضرورته .

٣ - أعمال المصارف من الحسابات الجارية وصرف الشيكات وخطابات الاعتماد والكمبيالات الداخلية التى يقوم عليها العمل بين التجار والمصارف فى الداخل ، كل هذا من

(١) المؤتمر الثانى المنعقد فى القاهرة عام ١٩٦٥ .

المعاملات المصرفية الجائزة وما يؤخذ فى نظير هذه الأعمال ليس من الربا .

٤ - الحسابات ذات الأجل وفتح الاعتماد بفائدة ، وسائر أنواع الإقراض نظير فائدة ، كلها من المعاملات الربوية وهى محرمة .

٥ - أما المعاملات المصرفية المتعلقة بالكمبيالات الخارجية فقد أجل النظر فيها إلى أن يتم بحثها .

٦ - ولما كان للنظام المصرفى أثر واضح فى النشاط الاقتصادى المعاصر ، ولما كان الإسلام حريصا على الاحتفاظ بالنافع من كل مستحدث مع اتقاء أوزاره وآثامه، فإن مجمع البحوث الإسلامية بصدد درس بديل إسلامى للنظام المصرفى الحالى ، ويدعو علماء المسلمين ورجال المال والاقتصاد إلى أن يتقدموا بمقترحاتهم فى هذا الصدد [١] .

وفى مؤتمر الفقه الإسلامى المنعقد بالرياض ذى القعدة سنة ١٣٩٦ [٢] أصدر فى صدد الفائدة ما يلى :

- العمل على إلغاء المعاملات الربوية ومنها الفائدة المحددة ؛ لأنها ربا صريح ، وهى ضارة بالنشاط الاقتصادى حيث لا يتم التوازن الاقتصادى إلا بإلغائها ..

- التوسع فى إنشاء مؤسسات مصرفية غير ربوية ودعم القائم منها ، والعمل على تشجيع بقية المؤسسات المصرفية العاملة فى البلاد الإسلامية على تطوير نظمها بما يتوافق مع أحكام الشريعة الإسلامية .

---

(١) ص٤٠١، ٤٠٢ من كتاب المؤتمر الثانى للبحوث الإسلامية .
(٢) أكتوبر ١٩٧٦ .

النظام السياسى الإسلامى

لاينتظرن أحد أن نقدم له منهجا مفصلا لنظام سياسى إسلامى ، فذاك لا يمكن قبل أن تقوم دولة الإسلام ، ولا ينتظرن أحد أن نقدم صورا من التاريخ الإسلامى، فذاك موضع دراسة أخرى .

إنما نقدم ـ بمشيئة الله ـ تخطيطا لنظام سياسى إسلامى ، لا يحوى خطوطه الرئيسية التى لايصح إن تخلفت كلها أو بعضها أن يقال عن نظام ما : إنه نظام إسلامى ..

ونحن فى هذا - بإذن الله - لا نقدم شيئا بدون دليل .

وفى اعتقادنا أنه يلزم لنظام سياسى إسلامى ثلاثة خطوط :

أولها : شرعية إسلامية تظله .

ثانيها : أمة تحمله .

ثالثها : سلطة تحميه .

ونتناول كلا بكلمة :

أولا : الشريعة الإسلامية

قد يظن أن هذا اللفظ مستعار من أنظمة أجنبية ، لكن المتأمل يجد أنه فى الأصل لفظ إسلامى من ناحية اشتقاقه ، ثم من ناحية دلالته .

فنحن أسبق من غيرنا إلى الشرعية ، وأرسخ قدما والحمد لله.

فالشرعية اشتقاق من فعل شرع .

وبين الشرعية والشريعة جناس كامل من ناحية اللفظ .

وكذلك من ناحية المعنى .

ففى فقه الإسلام لا شرعية بغير شريعة .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية] .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى] .

وحتى تظل الشرعية الإسلامية نظاما ما ، لابد من ثلاثة شروط :

أولها : أن يكون لله الشرع ابتداء :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى] .

وألا يشاركه هذا السلطان أحد من البشر ، وإلا كان الشرك والكفر :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى] .

ورد الشرع إلى الله ابتداء لا يعنى الجمود عن الاجتهاد ، فيما سكت عنه الشرع رحمة بنا غير نسيان ، أو فيما جاء ظنى الدلالة ، وذاك أمر الله إلينا : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء] .

والاجتهاد وإن لم يكن شرعا ابتداء ، إلا أنه شرع ابتناء لا ابتداء ، أى: استمدادا

من شرع الله واستنباطا منه .

ومن ثم ، ففى ظل دائرة الاجتهاد نحن كذلك فى ظلال الشرعية الإسلامية .

الشرط الثانى : أن تكون شريعة الله هى العليا :

وشريعة الله لا تكون عليا إلا حين لا تكون معها شريعة أخرى ولا تكون فوقها شريعة أخرى ، وليست الشريعة - كما أشرنا من قبل - قاصرة على مجال الأحكام ، وإنما تمتد إلى كل المجالات وتشمل جميع الأنشطة . ولقد حرص الكتاب على التنويه بجعل شريعة الله هى العليا فى أكثر من موضع ، فقوله تعالى ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة : ٤٠] تعنى أن تكون شريعة الله هى العليا ؛ لأن لفظ (كلمة) اسم جامع لكلمات الله وبكلماته نزلت شريعته .

وقول رسول ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**» [1] تعنى نفس الشىء .

وقول الله تعالى :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات] .

الآية الأولى تعنى : لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، أى: لا يكن لكم رأى ولا شرع ولا نظام فوق شرع الله ورسوله ، وهو ما عنيناه بأن تكون شريعة الله هى العليا .

---

(١) رواه الستة .

أما الثانية فهى تحرم رفع الصوت فوق صوت النبى .

وليس من المعقول أن يحرم رفع الصوت ماديا فوق صوت النبى ، ويجوز رفعه معنويا بجعل شرع أو رأى فوق شرع النبى ﷺ، بل يمكن أن نقول : إن صوت النبى هو الشرع ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم] .

ولقد يكون هذا الشرط غريبا على من قبلوا تطبيق شريعة الله .

لكن يبدو لازما بالنسبة لقوم نصوا فى بعض دساتيرهم على أن الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى ، فأجازوا بذلك أن تكون معها شرائع أخرى ، أو آخرون جعلوا الشريعة الإسلامية مصدرا ثالثا بعد التشريع الوضعى والعرف ، فجعلوا فوق شريعة الله شرائع أخرى . كذلك بالنسبة لمن يطبقون ، فقد يجعلون مع شريعة الله شرائع أخرى فى بعض المجالات التى يظنون أن الشريعة سكتت عنها ، وفى الحقيقة أنها لم تسكت ، مثل النظم المصرفية وكثير من النظم الاقتصادية والاجتماعية، بل والسياسية !

من هنا كان لابد من التنويه بهذا الشرط لنقول : لا إنه إذا لم تكن شريعة الله هى العليا لاشريعة معها ولا شريعة فوقها ، فإنه لا شرعية للنظام الذى يزعم لنفسه أنه إسلامى .

الشرط الثالث: أن تطبق شريعة الله شاملة غير مجزأة :

وشريعة الله شاملة العقيدة والأخلاق ، وشاملة الشعائر والمعاملات وهى بهذا الشمول لا تقبل التجزئة :

فطـــرة :

لأنها بناء متكامل يشد بعضه بعضا ، وبتر بعض الشريعة كهدم بعض البناء إن لم يؤد إلى هدمه كله ، فعل الأقل يعجزه عن أداء وظيفته كاملة .

أو فى شفاء متكامل ، وترك بعض الدواء يؤدى إلى عدم الشفاء إن لم يؤد إلى تفاقم المرض .

وهى لا تقبل التجزئة شرعا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام هو هذه الشريعة المتكاملة ، وبتر جزء - أو استبدال غيره به - لا نستطيع معه أن نقول : إنه هو الإسلام الذى رضيه لنا الله !

فضلا عن أن الله سبحانه حذرنا هذه الفتنة ، فقال :

﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة :٤٩] .

وعقب على هذه التجزئة بقوله : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة] .

فالذى يأخذ كل نظامه من عند غير الله ، كالذى يأخذ بعض نظامه من عند غير الله ، قد رضى حكم الجاهلية وأعرض عن حكم الله .

وقال رسول الله ﷺ: «**من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضاد الله فى حكمه** »، فجعل تعطيل حد واحد من حدود الله مضادة لله فى حكمه ، ومحادة له فى أمره، فكيف بمن عطل أكثر من حد ، ومنع أكثر من حكم ؟

وهكذا كانت تجزئة شريعة الله :

فتنـــة .

وجاهلية .

ومحادة الله ورسوله .

ومن ثم كانت مرفوضة غير مقبولة .

وهكذا تكتمل للشرعية شروطها .

إذا كان لله الشرع ابتداء .

إذا كانت شريعة الله هى العليا .

إذا طبقت شاملة غير مجزأة .

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأرسل إلى أبى حازم ، فكان مما قاله سليمان :

ـ يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟

ـ قال : لأنكم خربتم آخرتكم ، وعمرتم دنياكم ، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب .

ـ فقال : يا أبا حازم ، كيف القدوم على الله ؟

ـ قال : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسىء ، فالآبق يقدم على مولاه .

ـ فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ، ما لى عند الله ؟

ـ قال أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله تعالى، حيث قال : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ ﴾[الانفطار] .

ـ فقال سليمان : فأين رحمة الله ؟

ـ قال : قريب من المحسنين ..

ـ ثم سأله بعد ذلك : ما تقول فيما نحن فيه ؟

ـ قال : أو تعفينى ؟ ثم قال : إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم [1] .

وقيام الشرعية الإسلامية على هذا النحو ، أو تطبيق الشريعة الإسلامية بهذه الشروط، يستتبع ويستلزم للنظام الإسلامى أن توجد أمة تحمله ، وأن توجد سلطة تحميه ، ولهذا وتلك من السمات والشروط ما يحتاج لشىء من التفصيل .

---

(١) تفصيل ذلك فى تفسير القرطبى .

ثانيا : أمة تحمل الحق :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الأعراف] .

وهذه الأمة التى جعل الله لها الخيرية على سائر الأمم جعلها بحقها وشروطها ، وهى إن قامت فيها هذه الشروط كتب الله لها الخلود .

ولقد بقيت الأمة الإسلامية رغم المحن والأزمات ، ورغم تقلبات الحكم والحاكم، بقيت بحمد الله حافظة لكتاب الله ، محفوظة بعناية الله ، حتى لقد صح ما قاله أحد الأئمة من أن العصمة فى الإسلام للأمة لا للإمام ، وصح ما نقوله من أن الأمة الإسلامية كانت بعد الكتاب العزيز من أكبر آيات الله العزيز الحميد.

فلو أن أمة أخرى تعرضت لما تعرضت له الأمة الإسلامية ، من كيد، وبطش، وعسف، لما كان لها اليوم وجود .

وإن الأمة التى أخرجت أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليا وعمر بن عبد العزيز من الحكام، وأخرجت من العلماء العاملين : أبا حنيفة، ومالكا، والشافعى، وأحمد بن حنبل، ومن بعدهم الذين: ﴿ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وحج الرشيد عاما فلقيه عبد الله العمرى فى الطواف ، فقال : يا هارون ، قال : لبيك ياعم ، قال : كم ترى هنا من الخلق لا يحصيهم إلا الله ؟ قال : اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ، وأنت واحد تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ؟ فبكى هارون وجلس ، فجعلوا يعطونه منديلا منديلا للدموع ، ثم قال له : إن الرجل ليسرع فى مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن أسرع فى مال المسلمين [1].

(١) سراج الملوك للعلامة: أبى بكر محمد بن الوليد ـ طبعة سنة ١٣١١هـ ، وهامش مقدمة ابن خلدون ص:٦٦ .

والأمة الإسلامية وإن كانت اليوم تبدو مفككة ضعيفة ، فإنها تحمل عناصر الابتعاث..

وهى فى ابتعاثها لا تحتاج إلى وقت طويل ! وقد أدرك ذلك بعض المستشرقين فقاله وحذر منه .

ونحن بحاجة فى هذه العجالة أن نشير إلى سمات هذه الأمة وتكملة أخرى أشرنا إليها فى مكان آخر .

فهى أولا : آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر :

ولا يمكن أن تأمر بالمعروف ولا تأتيه ، أو أن تنهى عن منكر وتأتيه ، ففاقد الشىء لايعطيه ، فأمرها ونهيها يعنى أنها تقيم هذا المعروف وتلفظ ذلك المنكر .

وكل ما أمر به الله ورسوله معروف ، بل هو أعرف المعروف .

وكل ما نهى عنه الله ورسوله منكر ، بل هو أنكر المنكر .

وهى ثانيا : تؤمن بالله :

وإيمانا بالله يعنى أنها تقوم على التوحيد ..

ولا تقارب بين توحيد وتثليث .

ولا تقارب بين توحيد وشرك .

ولا تقارب بين توحيد وغيره من العقائد الفاسدة ..

وهى ثالثا : تقوم مع التوحيد على الوحدة :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء] .

وهذه الجنسيات، وهذه الحدود دخيلة عليها ، ليست من أمر الله فى شىء ، والأمة الواحدة هى التى انتصرت من قبل .

ولقد رفض رسول الله ﷺ عصبية الجاهلية وقال : «**دعوها فإنها منتنة**» ، ورفض المناداة بالعصبية بين الأنصار والمهاجرين .. حين نادى أحدهم : ياللأنصار ونادى آخر : يا للمهاجرين ، فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا وقال : «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟**» .

ونزل الكتاب العزيز يؤكد قول الرسول الكريم :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ [آل عمران] .

وهكذا ، كانت الفرقة والجنسيات والحدود جاهلية، أو كفرا .

وكانت الوحدة أخت الايمان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[آل عمران] .

وامتدح الرباط الذى وحد الأمة فى كتابه ، فقال عن المهاجرين : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر] .

وقال عن الأنصار : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر] .

وهكذا قامت دولة الإسلام الأولى تضم كل من قال : لا إله إلا الله ، بغير تفرقة لوطن، أو جنس ، وبغير اعتراف بحدود، أو جنسية !

وهكذا ينبغى أن نقوم مرة أخرى !

ثالثا: سلطة تحمى الحق :

قلنا : لابد من أمة تحمل الحق وسلطة تحمى الحق ، هذه السلطة لابد لها من أمرين تقوم بهما :

١ – إقامتها شريعة الله

وهذا أساس شريعتها الأولى .

وبغيره تغدو سلطة غير شرعية يجب جهادها ، وإقامتها شرعية الله لابد أن يكون على النحو الذى أشرنا إليه .

٢ – قيامها على رضا المسلمين بها :

والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

أ - أن الرضا أساس المعاملات فى الإسلام : ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء :٢٩] . والإمامة ـ أو الخلافة - عقد بين الخليفة والرعية يلزم له الرضا .

ب - أن الرضا لازم لصحة الإمامة الصغرى – إمامة الصلاة – فوجب الرضا من باب أولى لصحة الإمامة الكبرى إمامة المسلمين .

جـ ـ لقول الله سبحانه : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء :٥٩] ، فدلت الآية فى الطاعة على الشرط الأول وهو إقامة شريعة الله ، ودلت بلفظ (منكم) على الشرط الثانى وهو الرضا ، فإنهم لا يكونون منا بغير رضا منا .

د – لأن رسول الله ﷺ قد حرص على غرس هذا الأصل فى المجال السياسى بما فعله ببيعة العقبة الأولى والثانية ، مع أنه رسول الله وما كان بحاجة إلى رضا الناس ، لكنه حرص حين مهد لإقامة الدولة أن تكون إمامته ورئاسته لهذه الدولة برضا من المسلمين .

هـ ـ ثم ما فعله حين ترك تعيين خليفة من بعده؛ ليتم اختياره برضا المسلمين ،

الأمر الذى حرص عليه الخلفاء الراشدون من بعده على تفصيل ليس هنا محله .

و - لقول عمر بن الخطاب ﷺ : (فمن بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فإنه لا بيعة له ، ولا الذى بايعه تغرة أن يقتلا) .

ز - وهذا ما طبقه عمر بن عبد العزيز - حفيد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما - حين ولى أمر المسلمين فقال : (أيها الناس ، لقد ابتليت بهذا الأمر من غير رضا منى، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعة فاختاروا لأنفسكم) .

فأعاد بذلك تصحيح الوضع إلى ما كان عليه فى عهد الراشدين .

فإذا قامت السلطة على شريعة الله ثم على رضا المسلمين ، فلا يهم الشكل بعد ذلك :

لا يهم أن نسميها خلافة .

أو أن نسميها إمامة .

أو نسميها إمارة .

أو غير ذلك من الأسماء ، ما دام قد توافر لها هذان الركنان الأساسيان ، فإن انهار أحدهما انهارت الشريعة التى تستند إليها السلطة ، وفى الأمر تفصيل ليس محله هذا المقام[1] .

وبعـــد

* فتلك شريعة الله ، البذرة الطيبة ، التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وهى - كما أشرنا فى أكثر من موضع - لا تقبل التجزئة .

* وواجب الدولة بالنسبة لكل جوانبها واجب مزدوج ، فهو إيجابى من ناحية ، يرعى ويصون ويوجه ويدافع بالكلمة ، والصورة ، والسيف !

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك: نظرية الخروج ، المشروعية الإسلامية العليا للدكتور :على جريشة .

وهو سلبى من ناحية أخرى ، يمنع ويحول ، دون أن يخدش عقيدة ، أو خلقا ، أو شعائر، أو نسكا بالكلمة المنشورة، أو المتطورة . وبالتربية فى المدارس، والبيوت، وبالحدود، والقصاص، والتعزير !

وذلك هو الفهم السليم لحراسة الدين، وسياسة الدنيا به .

وهو تعريف الخلافة ، وتعريف كل حكم شرعى أو يريد لنفسه الشرعية !

ومن ثم :

فعلمانية القانون : عدوان على الشرعية الإسلامية .

وعلمانية التعليم : عدوان على الشرعية الإسلامية .

وعلمانية الإعلام : عدوان على الشرعية الإسلامية .

وعلمانية المجتمع ـ بعلمانية تقاليده، وخلقه ، وعاداته : عدوان على الشرعية الإسلامية.

وعلمانية الاقتصاد ـ بقيامه على الربا، أو افتقاره لخصائصه الرئيسية : عدوان كذلك على الشرعية الإسلامية .

وعلمانية الحكم ـ بقيامه على غير الشرعية ، أو على غير رضا الناس : عدوان صارخ على الشرعية الإسلامية.

تماما ..

كما لا يقبل من الفرد أن يصلى ، ويترك الزكاة .

وكما لا يقبل منه أن يصوم ، ويقول الزور أو يعمل به .

وكما لا يقبل منه أن يحج ، ويرفث، أو يفسق .

وكما لايقبل منه أن يفعل ذلك كله ، ثم يترك الجهاد ذروة سنام الإسلام أو يجاهد، ثم يستبيح لنفسه ما نهى عنه الإسلام :

من كذب ، أو خلف ، أو خديعة ، أو خيانة .. !

إنها لكبيرة ممن وضع نفسه هذا الموضع ..

كذلك هى كبيرة من رفعوا شعارات الإيمان، أو الإسلام، ثم أعرضوا عن حكم الله :

فى الاقتصاد .

أو فى السياسة .

أو فى الاجتماع .

أو فى العقيدة .

أو فى الأخلاق .. !

* ويبقى : كيف لنا أن نعود إلى تحكيم الشريعة كلها ، كما كانت على عهد رسول الله ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان ؟

والرد :

رسول الله بدأ من القاعدة ، لكنه لم يغفل القمة .

فكان تركيزه على الضعفاء والمساكين ، وكانت رسله وكتبه إلى الملوك .

ونحن .

كثيرا ما بدأنا من القاعدة ، وركزنا عليها ، وتركنا القمة ليستعملها غيرنا فى حربنا ، وقامت أمامنا الصعاب فى القاعدة .

فنحن نبنى ، وغيرنا يهدم ، إذاعة ، تليفزيون ، سينما ، صحافة ، رأى عام .

وحرب القمم لنا حرب مجردة من المبادئ، والقيم الإنسانية التى كان يعرفها العرب فى جاهليتهم ، والتى دفعتهم أن يفكوا الحصار عن رسول الله ﷺ والذين معه بعد ما ظلوا فيه ثلاث سنين ، ودفعت أمثال أبى سفيان أن يشهد لرسول الله ﷺ لما سئل عنه، وأمثال عتبة أن يشهد للقرآن شهادة حق .

فهل لنا أن نصبر على القاعدة ، حتى تخلص لنا قاعدة صلبة الإيمان قوية اليقين.. ؟

وهل لنا أن نبحث عن قمة عاقلة ، تسمح لنا بالبناء ، دون أن تهدم ، ودون أن

تحارب من يبنى ، ولها ألا تنازع الملك والسلطة !

إن القاعدة عريضة مؤمنة ، وقمة عاقلة متبصرة ، هى أمل الإسلام القريب ، والله المستعان ..

المراجع

١ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام: ابن تيمية .

٢ - القرب فى محبة العرب للحافظ: العراقى .

٣ - الفكر الإسلامى المعاصر : دراسة وتقويم لغازى التوبة .

٤ - الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور: محمد البهى .

٥ - تهافت الفكر المادى بين النظرية والتطبيق للدكتور: محمد البهى .

٦ - الإيمان الحق : شهادة وعقيدة وعبادة للدكتور المُستشار: على محمد جريشة .

٧ - فى الزنزانة للدكتور المستشار: على محمد جريشة .

٨ - عندما يحكم الطغاة للدكتور المستشار: على محمد جريشة .

٩ - الإسلام يتحدى - مدخل علمى للإيمان لوحيد الدين خان .

١٠ ـ حاضر العالم الإسلامى : تأليف لوثروب ستودارد ، وترجمة نويهض ، وتعليقات شكيب أرسلان .

١١ - حضارة العرب لغوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر .

١٢ ـ الغارة على العالم الإسلامى ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافى .

١٣ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور: محمد محمد حسين .

١٤ - الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين .

١٥ - حصوننا مهددة من داخلها – فى أوكار الهدامين للدكتور: محمد محمد حسين .

١٦ - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: لأبى الحسن الندوى .

١٧ - الإسلام فى وجه التغريب : مخططات الاستشراق والتبشير للأستاذ: أنور الجندى.

١٨ - العالم الإسلامى : الاستعمار السياسى والثقافى والاجتماعى للأستاذ: أنور الجندى .
١٩ - بين الرابطة الإسلامية: والفكرة القومية لأبى الأعلى المودودى .
٢٠ - مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام ليوسف كمال محمد .
٢١ - لم هذا الرعب كله من الإسلام ؟ للأستاذ جودت سعيد .
٢٢ - التبشير والاستشراق : أحقاد وحملات للمستشار: محمد عزت إسماعيل الطهطاوى .
٢٣ - المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى لإبراهيم خليل أحمد .
٢٤ - أفيون الشعوب للعقاد .
٢٥ - حقيقة الشيوعية - سلسلة : اخترنا لك - الشيوعية والإنسانية لعباس محمود العقاد .
٢٦ - الإسلام والشيوعية للدكتور: عبد الحليم محمود .
٢٧ - الخطر اليهودى - بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة محمد خليفة التونسى .
٢٨ - الصهيونية بين الدين والسياسة لعبد السميع الهراوى .
٢٩ - العالم العربى اليوم لمورو بيرجر .
٣٠ - أحجار على رقعة الشطرنج لوليم غاى كار ، ترجمة سعيد الجزائرى .
٣١ - لعبة الأمم لمايلز كوبلاند ، تعريب مراد سرخيس .
٣٢ - وجهة الإسلام لهاملتون جب وآخرين .
٣٣ - تقرير لورد كرومر سنة ١٩٠٦ .
٣٤ - أعمدة الحكمة السبعة للورنس .
٣٥ - مقومات الاقتصاد الاسلامى للأستاذ عبد السميع المصرى .
٣٦ - الإسلام فى وجه الزحف الأحمر لمحمد الغزالى .
٣٧ - ماركسية القرن العشرين ، ترجمة لكتاب جارودى (التحويل الكبير فى الاشتراكية) لنزيه الحكيم .
٣٨ - الخطر الصهيونى على العالم الإسلامى لماجد كيلانى .

٣٩ - تجربة عربى فى الحزب الشيوعى لقدرى قلعجى .

٤٠ - حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون لعبد الحليم خفاجى .

٤١ - مستقبل الحضارة بين العلمانية، والشيوعية، والإسلام ليوسف كمال محمد .

٤٢ - نحن والشيوعية فى الآونة الأخيرة للدكتور سعدون حمادى .

٤٣ - مؤامرة اليهود على المسيحية لإميل الغورى .

٤٤ - الكنز المرصود فى قواعد التلمود للدكتور روهلنج ، ترجمة الدكتور يوسف نصر الله .

٤٥ - خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية لعبد الله التل .

٤٦ - اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية لإيليا أبى الروس .

٤٧ - الماسونية فى العراء للدكتور محمد على الزغبى .

٤٨ - الجمعية الماسونية : حقائقها وخفاياها للدكتور: أحمد غلوش .